

الفصل الثاني

الغزو الثقافي

الفلسفات المادية

● يقول «ول ديورانت» : « كانت أوروبا بعد النهضة عبارة عن عبادة للدولة ، وللمال ، وللترف الحضري ، وللتكلف والافتعال ، والرذيلة »^(١). وكان ذلك بمثابة ردة عن المسيحية ، وانصياعاً للفلسفات المادية التي لا تؤمن بالله ، ولا تعترف برسول أو كتاب منزل . ثم حملت أوروبا هذه التوجهات إلى البلاد والشعوب التي ابتليت باستعمارها .

- وقد أشرنا في الفصل السابق إلى التنصير والاستشراق اللذين وجدّا الحماية والدعم من جنود الاحتلال ، ومن بعض الحكام . وبعد مثابرة طويلة الأمد ، استطاعوا نشر الفلسفات المادية بين أبناء المسلمين ، وتبلور «الهجين» الثقافي الذي يتركب من عناصر إسلامية وأفكار مادية متضادة معها ، حتى أصبح سمة أساسية للمجتمعات المسلمة .

● وعندما تأسست الكليات والجامعات الحديثة في العالم الإسلامي ، درّس فيها أساتذة أوروبيون وأمريكيون ، ووضعوا مناهج الفلسفة المادية ، حتى اعتقد بعض الطلاب أن الفكر الأوربي هو الفكر الوحيد ، الذي يستحق هذا الاسم ، وأنه لا فكر سواه^(٢). وفي المقابل أخذوا ينظرون إلى الفكر الإسلامي على أنه فكر قديم ، عفى عليه الزمن ، ولم يعد يصلح للحياة ، ونعتوه بالماضوية والتحجر .

(١) ول ديورانت ؛ قصة الحضارة ؛ الإسلام والشرق السلافي ؛ ترجمة فؤاد أندراوس ؛ نشر مكتبة الأسرة ؛ المجلد ٢١ ؛ ص ٢٦٧ .

(٢) دكتور زكي نجيب محمود ؛ تجديد الفكر العربي ؛ دار الشروق ؛ ط ٥ سنة ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م ؛ ص ٥

● وفي المجال السياسي والاقتصادي ، انتشرت النظم الرأسمالية ، الليبرالية ، على أسس مادية في معظم بلاد المسلمين . وفي منتصف القرن العشرين وقعت الانقلابات العسكرية ضد الليبرالية ، وتبنت الأفكار الاشتراكية والشيوعية . وتكونت الأحزاب التي تعتق تلك المذاهب وتحشد الرأي العام لتأييدها .

وهكذا خيّم على معظم الشعوب المسلمة مناخ مادي معتم ، ومسيطر ، وخفّت الصوت الإسلامي ، وإن بقي الإسلام عميقاً في الضمائر .

● ولم يقف الغزو الثقافي المادي عند حدود النخب السياسية والثقافية ، وإنما امتد إلى الطبقة الوسطى ، فأخذت تحاكي الغربيين في الطعام والشراب والمسكن والأثاث ، وتلثت لتعلم اللغات الأجنبية ، وتفخر بالنطق الدقيق لألفاظها ، ولا يستحي أحدهم من الخلط بين الفاعل والمفعول في العربية !

- وهُجرت الأسماء العربية لتحل محلها الأسماء الأجنبية ، على واجهات المحلات والشركات والمصانع والمدارس والفنادق والمصارف والنوادي . وفي مصر صدر قانون يحتم كتابة اسم المحل بالعربية أولاً ، وتحت الاسم بالحروف اللاتينية . لكن السلطات لم تؤاخذ المخالفين ، فانقلب الوضع الآن بأن كتبت الأسماء بالحروف اللاتينية وحدها!

- والشيء نفسه حدث للبضائع المعروضة في الأسواق من أصناف الطعام والشراب واللباس والأثاث والزينة ، فالغالبية العظمى تحمل أسماء أجنبية ، على الرغم من أنها من المنتجات المحلية .

- وحرص التعليم الرسمي على نشر اللغات الأجنبية عن طريق المدارس الرسمية والخاصة ، الوطنية والأجنبية .

● لكن المعجزة الإسلامية كانت تنتظر الجميع . ففي هذا المناخ المادي ، المتغرب ، انبثقت الصحوّة الإسلامية في الربع الأخير من القرن العشرين . وضاعت المساجد بالمصلين يوم الجمعة وفاضت على الشوارع والساحات المجاورة .

وراجت سوق الكتب الإسلامية ، حتى عرفت البوادي والنجوع النائية مؤلفات الغزالي وابن القيم وابن حزم . وعادت أعداد هائلة من النساء إلى ارتداء الخمار أو الحجاب ، الأمر الذي أقلق الماديين في الخارج ، لدرجة أنهم فصلوا الطالبات المحجبات من المدارس ، ولجأت فرنسا إلى سن قانون يحرم ارتداء الحجاب في مدارسها الرسمية . وعزفت الجماهير المسلمة عن التعامل مع المصارف الربوية ؛ فنشأت المصارف الإسلامية وازدهرت .

● وهكذا اشتد التصادم بين الشعوب المسلمة وبين الفئات المادية المتغربة ، أو بعبارة أخرى بين المركبات المتضادة « للهجين » السائد .

وفي معظم نواحي الحياة يقابلنا هذا التضاد . مثال ذلك الدستور المصري . فهو ينص على أن : « الإسلام دين الدولة »^(١) . ولكنه ينص أيضاً على أن : « الشعب يسيطر على كل أدوات الإنتاج »^(٢) . وهذا مبدأ شيوعي مادي معروف .

- واضطرت النظم العلمانية التي تؤمن بالثقافة المادية إلى كبت الحريات العامة ، فجندت الأجهزة العديدة لإحباط أية حركة شعبية . وأهدرت أموالاً باهظة على تلك الأجهزة ، على حساب الزراعة والصناعة والتعليم والتنمية . واضطرت النظم الحاكمة إلى الاقتراض من الخارج ، وأدمنت ذلك . ورحب الأوروبيون والأمريكيون بإقراض المقترضين ، لأن ذلك هو السبيل إلى الهيمنة . ومع مرور الزمن ، تضاعفت أرقام الديون ، وفوائدها ، وانعكس ذلك كله على اقتصاد البلاد وحرية اتخاذها لقرارها ؛ وجاء عصر التبعية بعد ذلك .

● ومع ذبوع الفلسفة المادية في مجالات السياسة والاقتصاد ، صارت المعايير المادية هي التي يُحتكم إليها في تقرير الصواب والخطأ ، والجمال والقبح ، والمفيد والضار ، والمعروف والمنكر والتقدم والتأخر . وصار السفير الأمريكي يعترض على بعض ما تنشره الصحف من المقالات والتحقيقات . بل إن بعض الخطب المنبرية تعرضت لنقد السفير الأمريكي في بعض البلاد الإسلامية .

(١) انظر : الباب الأول من الدستور المصري الصادر سنة ١٩٧١ - المادة ٢ .

(٢) نفسه ؛ الفصل الثاني ؛ المادة رقم ٢٤ .

- وامتد نفوذ أمريكا إلى مجال التربية والتعليم ، فأخذت تعترض على تدريس بعض المواد الإسلامية . وأيدها كثير من المعادين للإسلام ، من الماديين من أبناء المسلمين ، فقلّصوا المواد الإسلامية ، وتوسعوا في دراسة التاريخ الوطني القديم والجديد ، ودراسة الفرعونية ، والفينيقية والآشورية ، ليزاحموا الإسلام ، ويضعفوا الولاء له ، وصار رفاة الطهطاوي أهم من عمر بن عبد العزيز في المناهج الدراسية.

● يعرف المسلمون هذه الحقائق ، ويعرفون أن الإسلام يواجه اليوم فلسفات وأفكاراً ومذاهب معادية عديدة داخلية في «الهجين» الثقافي . وهذا يحتم على الدعاة التصدي لتلك الأفكار المعادية للإسلام ؛ فعمل الداعية : « يشبه فعل الفلاح الذي يقلع الشوك ، ويخرج النباتات الأجنبية من بين الزرع ليحسن نباته ويكمل ريعه »^(١).

● حقاً لقد واجه الإسلام أعداءً عديدين من الوثنيين والمشركين واليهود والنصارى والمجوس وغيرهم ، لكن المواجهات الحالية مع الإلحاد والمادية والشيوعية والاشتراكية والرأسمالية والشعوبية ، وحركات الردة : القاديانية والبهاية ، والصهيونية والعلمانية والاستباحة والبراجماتية الأمريكية ، والنسبية السوفسطائية الجديدة ، تجعل المواجهة أشد وأعنف ، خصوصاً في عصر تتسلح فيه القوى المعادية بكل الأسلحة : من تعليم وتربية وإعلام وآداب وفنون ، وتدخل بأجهزتها مخادع المؤمنين لغوايتهم وتضليلهم وإبعادهم عن دينهم . ولم يتعرض أباًؤنا وأجدادنا لمثل هذا الطوفان من العداء والغواية . ولم يواجه سلفنا الصالح من الدعاة العظام على امتداد تاريخنا الإسلامي فلسفات وأفكاراً بهذه الكثرة ، وقد دخلت في قلب فكرنا الراهن ، وشكلت هذا «الهجين» المتنافر الذي يسبب لنا الصدمات والنزاعات ، حتى الحروب الأهلية في بعض بلادنا المسلمة .

(١) أبو حامد الغزالي ؛ أيها الولد ؛ تحقيق علي محيي الدين علي الفرداغي ؛ نشر دار الاعتصام ، بالقاهرة ؛ ص ١١٢ .

● لقد تغير فكر المخاطبين، وتغيرت أخلاقياتهم ونظم حياتهم تغيرات عميقة .
وعلى الدعاة أن يدرسوا هذه التغيرات جيداً ، ويطوروا الخطاب الديني ، ليواجهوا
الدعوات المضادة التي تستخدم مناهج ووسائل متطورة بعيدة التأثير في الناس .

النسبية السوفسطائية : من الغرب إلى بلادنا

● ويصف « فوكوياما » التطورات التي حدثت في الغرب ثم انتقلت إلينا فيقول :
إنه حتى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ، كانت الأسرة في بريطانيا والولايات
المتحدة متماسكة ومنضبطة ، وسائدة . وخضع السلوك الجنسي للشباب لقواعد
صارمة . غير أن تحولات وتغيرات ثقافية غير ظاهرة أدت إلى تقويض تلك
القواعد .

● وسنرى أن هذه التطورات صُدَّتْ إلينا فيما بعد !

- على رأس تلك التحولات الثقافية كان ثمة فلاسفة وعلماء وفنانون يروجون
لأفكار نظرية مجردة هي التي أفضت إلى التغيرات الواسعة العميقة التالية . وعن
طريق الكتب المبسطة والصحف ووسائل الإعلام الأخرى صارت تلك الأفكار
النظرية ثقافة شعبية . ثم انتقلت تلك الأفكار إلى التطبيق في عالم الواقع ، في
سلوك أعداد كبيرة من الناس .

- ويُرجع « فوكوياما » انهيار الأخلاقيات المسيحية الموروثة إلى الفلسفة العقلية
في الغرب ، فهي التي أنكرت وجود أسس عقلية للمعايير الأخلاقية . وكان
« فردريك نيتشه » هو أوضح من عبّر عن تلك الفلسفة ، فهو الذي تبنى نسبية
الأخلاق ، وحاول أن يثبت أن الإنسان هو الذي يضع القيم الأخلاقية وهو الذي
يلغيها .

● وشكك « جون ديبوي John Dewey » (١٨٥٩-١٩٥٢) و « وليام جيمس
William James » (١٨٤٢-١٩١٠) و « جون واطسون J. Watson » (١٨٧٨-
١٩٥٨) في عقيدة الخطيئة الأولى المسيحية التي تقرر أن الطبيعة البشرية أئمة

بفطرتها . وشككوا أيضاً في كون الضوابط الأخلاقية الصارمة ضرورية لتنظيم المجتمع . وزعمت المدرسة السلوكية في علم النفس أن البشر آثمون ، ولكن بسبب الضغوط الاجتماعية والسياسية ، لا يسبب الخطيئة الأولى . وروّج «فرويد Sigmund Freud» (١٨٥٦-١٩٣٩) لفكرة أن الكبت الجنسي هو سبب الأمراض العصبية *neurosis* فانتشرت فكرته انتشاراً واسعاً لدى جيل كامل .

● وفي بداية القرن العشرين ، نتيجة للتطورات الفلسفية السابقة ، انهارت القيم الأخلاقية ، فتصاعدت نسبة احتساء الخمر ، وارتادت النساء المهنذبات صالات الرقص ، وظهرت السينما ، وتوطدت الثورة الجنسية - أي استباحة الفواحش - في الستينيات وسط النخب الأمريكية^(١).

● وكانت لهذه التطورات أصداؤها في بعض عواصم العالم الإسلامي ، ويمكن القول إنها انتشرت بالتدرج نفسه الذي سارت عليه في الغرب ، حتى أخذت مكانتها في حياة الناس العاديين . فانتشرت أولاً بين النخب الثقافية والسياسية . وحاول عدد من الأكاديميين ترويج النسبية في الأخلاق كما هو الحال عند «نيتشه» . واضطنّع عبدالرحمن بدوي - الذي كان لا يزال كاتباً مبتدئاً - في الأربعينيات من القرن العشرين ، أسلوباً خطابياً زاعقاً في عرض نسبية «نيتشه»^(٢) . ثم كتب عنه الدكتور فؤاد زكريا كتاباً^(٣) . وكان أحمد أمين وزكي نجيب محمود قد أفرقاً له أكثر من خمسين صفحة في كتابهما «قصة الفلسفة الحديثة»^(٤) . وكتب عنه آخرون في مجلة الرسالة القديمة . وأتسمت بعض الآراء في «نيتشه» بالغلو والشذوذ ، فوصّفه خليل هنلاوي بأنه نبي ، وأن آراءه هي الدواء لأمراض المجتمع العربي!^(٥) وألفت كتب أخرى وقدمت رسائل جامعية عن «نيتشه» أيضاً .

(1) The End of History and the Last Man; Pull . Penguin ,1992 ; The Introduction

(٢) نشرته مكتبة النهضة المصرية (دون تاريخ) لكنه صدر في بداية الأربعينيات من القرن العشرين .

(٣) في كتابه : نيتشه ؛ نشرته دار المعارف بمصر (دون تاريخ) .

(٤) نشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر ؛ سنة ١٣٥٥هـ - ١٩٣٦م

(٥) العددان رقم ١٣٨ ورقم ١٣٩ من مجلة الرسالة القديمة .

● والحق أن آراء « نيتشه » الفلسفية والأخلاقية لا تستحق هذا التقدير . لكن الذين كتبوا عنه كانوا يأملون في إحداث انهيار أخلاقي كالذي حدث في الغرب .

● لقد وجدت نسبية « نيتشه » - أولاً - رواجاً ملموساً وسط النخبة العلمانية الأكاديمية الضيقة ، ثم هبطت الفكرة إلى الإعلام ، وواظب العلمانيون العرب على الترويج للنسبية الأخلاقية الجذرية التي تعني أن كل شيء يتغير بتغير الزمان . وتبعاً لهذا لا بد أن يتغير الإسلام بعقائده وشرائعه ، وأخلاقياته .

● ومع المثابرة في الترويج للنسبية بدأت الفكرة تنتشر بالعدوى من تركيا ومصر والشام وشمال إفريقيا إلى سائر البلاد المسلمة . وبدأت فئات متعلمة تجد صعوبة في قبول الثوابت الإسلامية . وتساءل العلمانيون في خبث : هل تُثبَّت على ظهور الجمال وندع السيارات والطائرات؟!

● وعلى الرغم من سقوط النسبية في الفكر الأوربي الحديث والمعاصر عند عدد من كبار الفلاسفة - مثل هُسرل (١٨٥٩-١٩٣٨) وهارتمن (١٨٨٢-١٩٥٠) - واصل العلمانيون العرب تضليل الناس بالحاح لا يفتر على ضرورة التطور والتقدم والحداثة وما بعد الحداثة ، دون أي احترام للحقائق التي تحدد مجالات التطور وتميزها من مجالات الثوابت والمطلقات ^(١) .

● والقضية فلسفية بطبيعتها ، ولذلك يجد الداعية صعوبة في تقريب الفكرة الإسلامية المضادة إلى أفهام كثير من المدعوين .

● والمشكلة تتمثل في المستوى الثقافي للمخاطبين ، لا في مستوى الدعاة . إنهم أشبه ما يكونون بالأطفال الذين يسألون : كيف تطير الطائرات؟ ويعجزون عن فهم الجواب مهما تبسط الخبراء في شرحه .

● وفي النصف الثاني من القرن العشرين اصطدمت حركة التغريب كلها - لا النسبية وحدها - بالصحوة الإسلامية التي عمَّت العالم الإسلامي . وانتهى الصدام

(١) هذه التوجهات هي موضوع الجزء الثاني من هذا الكتاب .

بين التغريبيين وبين الإسلاميين إلى تبلور معسكرين متميزين متنافرين أحدهما إسلامي في مواجهة آخر علماني . وتضخم «الهجين» الثقافي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي بعناصره المتضادة المتنافرة ، وتطور في بعض البلاد إلى صدام عنيف ، وتوقف في بعضها الآخر عند حدود المعارضة السياسية والثقافية .

● وهذه التطورات الأخيرة هي التي جعلت مسار التطور في العالم الإسلامي يختلف عنه في الغرب . هناك في الغرب انتهت الفلسفة المادية إلى نبذ الدين ونشر الإلحاد ، وتوكيد النسبية الجذرية الشاملة . وطالبت النساء بالمساواة التامة مع الرجال ، ونُلنّها . وأسقطت الحرمة عن الفحشاء ، فانكمش عدد الأسر القانونية والمعتمدة كَنَسِيّاً . وزادت أعداد أبناء السفاح في طَفَرَات تجاوزت نصف أعداد المواليد . وأصبحت الجريمة المشكلة رقم واحد على الأجندات الحكومية الأوربية . وصارت المخدرات غذاءً يومياً للملايين من الكبار والصغار . وانتشر «الإيدز» بسبب انفلات الاتصالات الجنسية الحرة (!!) وازدهرت الدعارة حتى أضحت التجارة الثالثة بعد البترول والمخدرات!

تهديم أخلاقيات العفاف والسَّتر

● ورَشَحَت هذه الكوارث على المسلمين . فالأحاديث الطَّلِيَّة عن التطور لا تنقطع خلال وسائل الإعلام . وكل من يعارضها يوصف بالرجعية والتحجر . وفُرِضَت قضية المرأة علينا فرضاً . وانتشرت الأزياء النسائية الغربية التي تعرِّي الجسد أكثر مما تستر على نطاق واسع في بعض البلاد المسلمة ، وعلى نطاق ضيق في أخرى . وزاد عدد أبناء السفاح بقدر التراخي في احترام تعاليم الإسلام الضابطة لعلاقة الرجال بالنساء . ورَخِّصَ لبعض الساقطات بممارسة الدعارة في بعض العواصم المسلمة .

● وكان من الطبيعي أن تتضاعف هموم الداعية المسلم في مجتمع ابتليت نسبة كبيرة من أفراده بهذه الأمراض العقدية والأخلاقية . وواجه الكتّاب المسلمون طوفاناً من الروايات والمسرحيات والأفلام والمسلسلات والكتب والمقالات التي تروِّج

للتغريب والمادية والنسبية صراحة أو ضمناً . وهوُجَم الدعاة الملتزمون بضراوة ، ولم يجدوا الفرصة للرد أو صدَّ الهجمات إلا في حالات نادرة .

- والمطرف العلماني دور نشر رسمية تتلقف كتاباته ، وتعِدُّق عليه الأموال ، وليس للدعاة شيء من ذلك . وللعلمانيين مسارح رسمية تنتظر إنتاجهم وتكافئهم ، وليس للإسلاميين نصيب فيها . وهذا هو سبب قلة الإنتاج المسرحي في الوسط الإسلامي . فما جدوى أن يكتب الكاتب إذا كان يعلم سلفاً أن مصير إنتاجه مكان مظلم في خزانة كتبه ؟

● هكذا صار المخاطبون المسلمون في العالم الإسلامي غنيمة مستباحة للفعاليات العلمانية المضادة للدعوة الإسلامية دون منافسة تُذكر . ولا يمكن أن نُسَمِّي خطب الجمعة والأحاديث الدينية الإذاعية منافساً حقيقياً لكل الفعاليات العلمية والفنية والأدبية التي يحتكرها العلمانيون في معظم البلاد المسلمة .

إباحة الاستباحة

● ومَضَى التطور في الغرب في طريقه ، حتى صارت « الثورة الجنسية » التي وقعت في الستينيات وتحدث عنها « فوكوياما » - صارت استباحة مباحة permissive cornucopia حسب تعبير « برجنسكي » مستشار الأمن القومي للرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية (كارتر) . وأفرد برجنسكي فصلاً كاملاً لشرح أبعاد الاستباحة المباحة في كتابه Out of Control (الانفلات)⁽¹⁾ . فقال إن هذه الاستباحة المباحة جعلت اللذة الحسية هي القيمة العليا التي يسعى كل فرد لبلوغها ، بصرف النظر عن الضوابط الأخلاقية . وهذه الاستباحة هي التي تسلب أمريكا القدرة على امتلاك رسالة تقدمها للعالم ، وهي التي تهدد قبضة أمريكا التي تهيمن بها على العالم ، وتبشر بانفلات المَقود من يدها . واصطبغت الثقافة الأمريكية « بإباحة الاستباحة » ، وعَبَّر التلفاز عن تلك الثقافة بالإغراق في الجنس - الذي انفلت من عقال القيم - وتشجيع المشاهدين على الزنا واللواط

(1) A Robert Stewart Book; New York; 1993; pp . 64-74

والسحاق . وتاجر المنتجون بأجساد النساء ، في المسلسلات والأفلام والإعلانات ، واعتُبرت إباحة الاستباحة هي ثقافة المجتمع الراقي الذي يجب أن يُحتذى!

● وبهذه الاستباحة لا يمكن أن تكون أمريكا أنموذجاً للعالم ، وهي تلهث وراء الشهوات الجنسية والحسية والمادية ، وتتكر للدين بوصفه ضللاً منافياً للعقل!

● وجنور هذه الاستباحة ضاربة في أعماق الفلسفة اليونانية القديمة لدى أفلاطون الذي طالب بأن تكون النساء مشاعاً بين الرجال : ولا ينبغي أن تكون لأي امرئ زوجة خاصة ، كما ينبغي أن يكون الأطفال مشاعاً « بحيث لا يعرف الأب ابنه أو الابن أباه . »^(١)

- وفي أوروبا في عصر النهضة ، نُبذت المسيحية ، واستبدلت بها الفلسفة اليونانية التي كانت البذور الأولية لإباحة الاستباحة الراهنة .

المساواة التامة بين الرجال والنساء

● ويعبر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي أصدرته الأمم المتحدة في ١٠/١٢/١٩٤٨م عن حصيلة التغيرات التي حدثت في الغرب ، والتي يراد لها أن تحدث في العالم أجمع وفي العالم الإسلامي ، وهو ما يسمى « العولمة » .

- فالمادة رقم ٦ من ذلك الإعلان تزعم أن الذكر والأنثى : « يتساويان في الحقوق لدى الزواج ، وخلال قيام الزواج ، ولدى انحلاله . » وهكذا تتنافى هذه المادة مع أحكام الشريعة الإسلامية التي تعطي للرجال حقوقاً خاصة ، وتحملهم مسئوليات خاصة ، قبل الزواج وفي أثناءه ، وعند الطلاق وبعده . فالزواج يقدم الصداق ، وليس على الزوجة صداق ؛ والزواج يؤثت بيتاً ، وليس على الزوجة تأثيث . والزواج مكلف بالإنفاق على الأسرة ، والزوجة غير مكلفة بذلك . والقوامة للزوج وليس للمرأة قوامة . وهو يملك حق الطلاق ، وهي لا تملكه إلا إذا اشترطت أن تكون العصمة بيدها .

(١) جمهورية أفلاطون ؛ ترجمة الدكتور فؤاد زكريا ؛ ك ٥ - ف ٤٥٧ - ص ١٦٩

- ثم إن الذكر والأنثى يختلفان في الطبيعة الحيوية ذاتها ؛ وهذا هو ما يقرره الخالق جل في علاه بقوله ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى ﴾ (آل عمران: ٣٦) والذكر ليس له رحم ، وهو لا يحيض ، ولا يحمل ولا يلد ؛ وليس له مبيض ؛ والأنثى لها رحم ، ومبيض ، وتحيض وتحمل وتلد ، وترضع . وهذه الاختلافات تحتم اختلاف الواجبات الحياتية للذكور والإناث . وهذا هو ما يشرعه الإسلام ، وما يعتبره الإعلان الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١٩٦٧/١١/٧ تمييزاً ضد النساء ، ويطالب في المادة الثانية منه بأن : « تتخذ جميع التدابير لإلغاء القوانين والأعراف والأنظمة والممارسات القائمة التي تشكل تمييزاً ضد المرأة » . وهذا معناه نسخ الشريعة الإسلامية وإحلال هذه الإعلانات محلها .

الرفض الإسلامي لإباحة الدعارة

● ويحرّم الإعلان السالف الذكر الاتجار بالمرأة باستغلالها في البغاء ، لكنه لا يمنع النساء من امتهان الدعارة لحسابهن الخاص (المادة رقم ٨) وهذا تطبيق لـ « إباحة الاستباحة » التي تسود في الغرب اليوم .

- وأكثر من هذا تحظر الاتفاقية الصادرة في ١٩٤٩/١٢/٢ استغلال دعارة الغير ، كما تحظر تسجيل الداعرات أو بيان اشتغالهن في الدعارة في وثائق السفر وإثبات الشخصية ، أو إخضاعهن للكشف الطبي (المادة رقم ٦) وبذلك تُيسر لهن الاختلاط والسفر دون حرج!

- وفي العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية المؤرخ في ١٩٦٦/١٢/١٦ نصّ على أن : « تتعهد كل دولة طرف في هذا العهد ، إذا كانت تدابيرها التشريعية القائمة لا تكفل فعلاً إعمال الحقوق المعترف بها في هذا العهد ، بأن تتخذ - طبقاً لإجراءاتها الدستورية ولأحكام هذا العهد - ما يكون ضرورياً لهذا الإعمال من تدابير تشريعية أو غير تشريعية » .

- ومعنى هذا مرة أخرى أن على المسلمين نبذ شريعة الله التي تحرم البغاء وإحلال أحكام هذا الإعلان محلها! وهذا هو المطلوب عند العلمانيين الذين يكتبون تحت عنوان « تطوير الخطاب الديني » لتضليل الأمة .

نجاح وإخفاق

● ونحن نحمد الله تعالى على أن أمتنا رفضت ذلك الإعلان . صحيح أن تغيرات واسعة وعميقة أصابت الكثيرات من نساء المسلمين في فكرهن وسلوكهن ، لكن أحداً لم يجرؤ بعدُ على تطبيق أحكام ذلك الإعلان في أي بلد مسلم . وفي المؤتمرات التي عقدت في القاهرة ثم في بكين في التسعينيات من القرن الماضي ، أحبطت كل المحاولات لانتزاع قبول المسلمين لما يُطلق عليه « الحرية الجنسية » أو « إباحة الاستباحة » أو استحلال الفواحش والتحلل من القيم ، والمعنى واحد .

● لكن قلة قليلة من النساء المنحدرات من آباء مسلمين والحاملات لأسماء إسلامية ، نبذن الإسلام عقيدة وشريعة ، واعتنقن مذاهب إلحادية ، والتحقن بجمعيات ماسونية وأحزاب علمانية ، وأعلنن صراحة الانخلاع من أخلاقيات العفاف والسُّر الإسلامية . وانتشرت الأزياء الغربية الخليعة بينهن ، ورضي آباء وأزواج وإخوة بأن تخلو الابنة أو الزوجة أو الأخت بالأجنبي ، وتخرج معه إلى السينما والمسرح والشاطئ والنادي ، وتراقصه وتسهر معه ، وربما شربت الخمر ولعبت القمار . وصارت بعض البيوت المسلمة بيوتاً غربية في نظامها وعاداتها وأخلاقياتها . وانتشر السفور في كثير من عواصم العالم الإسلامي ، بل إن بعض البلاد تحرّم الحجاب على النساء في بعض الدوائر الرسمية ، وَتَحْرِم المحجبات من حق العمل في بعض الوظائف .

● ومن الجلي أن هذه التغيرات في أوساط النساء المسلمات تشكل مصاعب إضافية أمام الدعاة ، وعلى الرغم من ذلك نجحوا بتوفيق الله تعالى وعونه في استعادة الملايين من النساء إلى مظلة الإسلام . وكان ارتداء النساء للحجاب تعبيراً عن ذلك . ولهذا ثارت القوى العلمانية ضد المحجبات ، ووصف الدكتور زكي

نجيب محمود عودة الحجاب بأنه ردة ! وأخيراً لجأت فرنسا وألمانيا وتركيا إلى
تحريم الحجاب - في بعض الأماكن - بالقانون ! ومع المثابرة والإخلاص في
الدعوة نأمل أن تعود النساء المسلمات ، والرجال المسلمون إلى جنة الطاعة لله
تعالى ، لكي يفوزوا بجنة الآخرة .

● هذه هي سمات المجتمعات الإسلامية والدولية التي يعمل فيها الدعاة ؛ وهذه
هي التوجهات السائدة لدى المخاطبين والتي تجعلهم على الضد من آبائهم
وأجدادهم الذين كانوا يتلقون الدعوة منذ عهد النبوة إلى مائتي عام خلت .

● وفي إيجاز نقول إن المخاطبين المسلمين المعاصرين يتعرضون لتأثيرات
الفلسفة المادية النسبية الملحدة ، التي تسعى للحلول محل الإسلام ؛ وقد نجحت
في تشكيل « هجين » ثقافي قوامه عناصر إسلامية وعناصر علمانية متضادة ، صبَّغَ
الحياة الإسلامية بالتنافر والتصادم في معظم المجالات . وكانت النسبية
السوفسطائية النيتشوية أحد العناصر العلمانية الأساسية التي شوهدت المناخ الفكري
حتى صار من العسير عند كثيرين منا الدفاع عن الثوابت الإسلامية . ولعبت الثورة
الجنسية - أي استباحة الفواحش - دوراً مخرباً في اهتزاز القيم الإسلامية التي تنظم
علاقة الرجال بالنساء ، وفي افتعال قضية المرأة التي تُتخذ مدخلاً للتهجم على
الإسلام وشريعته!

الآثار الإيجابية للاحتكاك بالغرب

وكان للاحتكاك الكثيف بالغرب آثار إيجابية لا يمكن إنكارها . وقد شكلت
الجيوش الحديثة في العالم الإسلامي على أيدي خبراء غربيين ، وبعثت الدول
المسلمة أبناءها إلى دول الغرب لتحصيل الفنون الحربية . هذا ما فعله محمد علي
في مصر ^(١) . وما فعله السلاطين العثمانيون ، وشاه إيران ، وغيرهم .

(١) عبد الرحمن الرافعي ؛ عصر محمد علي .

ونظم التعليم الحديثة مقتبسة عن الغرب . وقد تولى التدريس في جامعة القاهرة عند بدء عملها أساتذة أجنب ، واستمروا فيها مدة طويلة حتى نشأت أجيال من أساتذة الجامعة الوطنيين . هذا إلى جانب الكليات الأجنبية ومدارس التنصير الحديثة التي أشرنا إليها سلفاً . وانتشرت نظم التعليم المقتبسة عن الغرب في سائر البلاد المسلمة . وكان ذلك سبباً في نهضة علمية وصناعية كبرى ، وفي الوقت نفسه ألحق ضرراً بالغاً بالوحدة الفكرية والثقافية الإسلامية ، حين أدخل الأفكار والفلسفات العلمانية والمادية التي شكلت « الهجين » الثقافي الذي نعاني منه حتى الآن ، والذي يمثل جوهر التغيرات التي طرأت على المدعوين المسلمين .

وعرف المسلمون الطباعة على أيدي الأوربيين . وعرفت تركيا الطباعة سنة ١٧٢٨م ، وعرفتها مصر سنة ١٧٩٨م ، ولبنان سنة ١٦١٠م . وبعد ذلك ظهرت الصحف ، وطبعت المخطوطات التراثية ، ومن ثم قامت النهضة الحديثة . ووقعت تغيرات هائلة في أحوال المدعوين المسلمين .

وعن الأوربيين أخذ المسلمون ماثات الأدوات والأجهزة الحديثة ، من السيارة إلى الطائرة ، إلى الهاتف ، إلى « الإنترنت » . ودفع المسلمون ثمن ما أخذوا كاملاً . وكانت بلادنا المسلمة هي الأسواق التي ضمنت الرواج للمصنوعات الأوربية ، والتي زودتها بكثير من المواد الخام للصناعة ، وعلى وجه الخصوص البترول . وكان لهذه المقتبسات آثار بعيدة المدى غيرت وجوه الحياة في عالمنا الإسلامي في المجالات النظرية والعلمية والتقنية والأدبية .

* * *